الرابطة القلمية بمدنين
Ben League Medenine
ندوات

# السرد والعمارة

## أعمال ملتقى السرديات الدولي التاسع

راجع النصوص وأعدّها للنّشر:
الدكتور رضا الأبيض

# الفهرس

- الورقة العلمية للملتقى..... **رضا الأبيض**..... 9

قسم الدراسات

[11]

- سرد العمران في القـرآن، نماذج تطبيقية في آيات السور.....**زغوان امحمد** (الجزائر)..... 13

- فن السرد مصدرا لدراسة تاريخ العمارة الإسلامية - طرابلس الغرب أنموذجا.....

.....**معمر القرقوطي** (ليبيا)..... 26

- عمارة المحاريب بين السرد والتاريخ..... **علي الثابتي** (تونس)..... 36

- الاعتقاد في قداسة العمارة من خلال نصوص السّير الإباضيّة: بين مدينة الإمام والأماكن المُحوّرة ..... **محمد فارس** (تونس).....45

- العمارة وسرد التاريخ: مباني المولى إسماعيل كمظهر من مظاهر حفظ الذاكرة.....

**ابراهيم البوعبدلاوي** (المغرب).....55

- أدب الدّيارات من خلال كتاب "الدّيارات" لأبي الفرج الأصفهاني.....**عماد عمري** (تونس)..... 70

- عمارة القبور في حكايات "ألف ليلة وليلة"ـ محاولة في سيمياء الثقافة.....**رزيق بوزغاية** (الجزائر).....86

- السرد والعمارة في حكاية (الصياد والعفريت)..... **إيمان محمد ربيع** (الأردن)..... 112

- البناء استعارة في الرواية العربية.....**محمد الصالح بوعمراني** (تونس)..... 126

- عمارة نجيب محفوظ السّردية، بنيتها ودلالتها، رواية "بداية ونهاية" أنموذجاً.....**حسن طاهر أبو الرُّب** (فلسطين)..... 136

- سرد المعمار ومعمار السرد في رواية "ماكيت القاهرة" لطارق إمام..... **شفيع بالزين** (تونس)..... 159

- رواية "أوراق شمعون المصري"، من تشييد العمارة إلى بناءالعبارة..... **فتحي بن معمر** (تونس)..... 176

- الفضاء المكاني بين التّجريد والتّجسيد في الرّواية العرفانية روايـة "قـواعـد العـشـق

# الاعتقاد في قداسة العمارة من خلال نصوص السّير الإباضيّة: بين مدينة الإمام والأماكن المُحوّرة.

محمّد فارس

تونس

لا شكّ أنّ المقدّس يتدخّل حينما تثار علاقة المكان بالإنسان. فتتحوّل المسألة إلى بحث عن الكيفيّة التي يهب بها الإنسان المعنى للمكان ولمؤثّثاته، فتصير رمزيّة. ومن هنا يظلّ "الرّمز حامِلا للُغزٍ ومعنى فائضيْن يتطلّبان الكشف والإظهار. وبهذا أيضا، تظلّ الرّموز لغة المقدّس المفضّلة. مثلما ظلّت تعبيريّة المقدّس محكومة بتعدّديّة المعنى وبلعبة الحضور والغياب"[1]. وذاك تماما ما نتبيّنه من خلال تنوّع أسماء الأمكنة المسرودة التي تواتر ذكرها في السّير ولعلّ أهمّها: الكهوف والمُصلّياتُ الرّجاليّة والنّسائيّة والمشاهد. لكنّ هذه الفضاءات هي في الحقيقة خارج إطار بحثنا المتعلّق بالعمارة أساسا. لذلك سنقصر دراستنا على الأمكنة التي شهدت تدخّل الإنسان بالتّشييد أو التّحوير مثل المدن والمساجد والمحاريب والكنائس المطوّرة.

فما هي الخصائصُ الطبيعيّة المميّزة لهذه العمارة؟ وكيف حوّلتها أخيلة الجماعات الإباضيّة المغربيّة أشكال تديّن ذات رمزيّة دالّة؟ وما الّذي يحقّقه إضفاء القداسة على المكان من عمق وتنوّع للتجربة الدّينيّة في مستواها الفرديّ الاعتقادي؟

تعرّف العمارة من منطلق بسيط "بأنّها فنّ تكوين الأحجام والفراغات المخصّصة لاحتضان الوظائف والنّشاطات الإنسانيّة والاجتماعية بتنوّعها. وهي انطلاقا من ذلك تعكس في سماتها وأشكالها الإنجازات التّقنية والحضاريّة، والتطلّعات الجماليّة والرّوحية، والقدرات المادّية للمجتمع في بيئة ما، وفترة تاريخيّة محدّدة"[2]. ولعلّ هذا التّعريف على بساطته يستجيب لأهداف بحثنا الرّامية إلى تتبّع مواطن التّطوير والتحوير التي ألحقها المتعبّد بالمكان، وما أضفاه عليها لاحقا من علامات التّبرّك والقداسة. ومتى نظرنا إلى طبيعة الأمكنة الحاضرة في المرويّات السّرديّة أمكننا توزيعها صنفين إثنين بحسب ما لحقها من تدخّل بشريّ: صنف أوّل شمل الأماكن المُحدثة وهي مواطن وبلاد

[1] نور الدّين الزّاهي، المقدّس الإسلاميّ، دار توبقال للنّشر، الدّار البيضاء، ط1، 2005، ص7

[2]- موسوعة ويكيبيديا "عمارة": https://ar.wikipedia.org/wiki/ :2020-04-11

استدعت الضّرورة التّاريخيّة أو المذهبيّة أو التّجاريّة إنشاءها من عدم. أمّا الصّنف الثّاني فيشمل الأماكن المطوّرة والمحوّرة مثل المصلّيات المتحوّلة إلى مساجد أو الجوامع المنقولة عن العريش، أو الأماكن المحوّرة عن وظيفتها الأصليّة وتشمل الكنائس والأديرة القديمة.

## 1. العمارة المُحدَثة:

### • إنشاء تيهرت مدينة الإمام عبد الرّحمان بن رستم:

كثيرا ما قدّمت المصنّفات العربيّة القديمة الفرس أصحاب شرائع وتنظيمات "فللفرس السّياسة والآداب والحدود والرّسوم"[1] وهي صفات تميّزهم شعبا عُرف بحضارة التّنظيمات والتشريعات المتولّدة عن خبرة طويلة في سياسة الدّولة. وقد كان أباضيّة المغرب في حاجة إلى هذه الخصيصة حين فشلت محاولة تثبيت الدّولة الأولى على أفضليّة العرق العربيّ في سلالة غير قرشيّة مع أبي الخطّاب عبد الأعلى بن السّمح المعافريّ[2]. لذلك تُنهي المصنّفات السّيريّة قصّة أبن السّمح المعافري باحتفاليّة الشّهادة[3] لتبدأ قصّة عبد الرّحمان بن رستم. وفي ذلك إعلان ضمنيّ عن تغيير النّهج في سياسة بناء الدّولة، بنقلها إلى فضاء لا يُحتاج فيه إلى الخيل الغازية للسّهول والصّحاري، بقدر حاجته إلى "صخور الجبال المانعة ورمال الصحاري الشّاسعة حيث تنتشر الإبل أدوات المنعة من سيوف الخلافة العبّاسيّة الملاحقة"[4]. ورغم إلحاح الرّواة الأباضيين منذ أبي الرّبيع سليمان بن يخلف على تمنّع الإمام الرّستميّ عن قيادة الدّولة الجديدة بداية المشوار بإقليم طرابلس -وهو الذي رافق الإمام أبا الخطّاب في رحلة طلب العلم عند أبي عبيدة بالبصرة- فإنّ قبوله للأمر دون شرط ببلاد تاهرت بعد ذلك بربع قرن، يجعل من عبد الرّحمان شخصيّة محنّكة تحسن اختيار أنسب الأوقات، لتحويل الإمامة إلى دولة على النّمط الفارسيّ. موظّفا في ذلك معرفته بالحساب وبالسّياسة والآداب والرّسوم. ولذلك "لم ينقم عليه أحد في حكومة ولا خصومة. ولم يقع في يده افتراق والإباضيّة يومئذ كلّها مجتمعة ملتفّة ولم يثر منهم ثائر"[5]. لقد كان بيت الرّستميّين كما يقول أبو زكريا "بيت العلم في فنونه من الأصول والفقه والتّفاسير وفنون الدّين والردّ على المخالفين وعلم اللّغة والنّجوم والإعراب والفصاحة"[6].

---

[1]- أبو حيّان التّوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، تح محمّد الفاضلي، ط دار الجيل، القاهرة مصر( ط1، ج1، ص57.

[2]- أبو الخطّاب عبد الأعلى المعافري، من معافر اليمن. عيّن إماما على الإباضيّة سنة 140ه/757م بطرابلس. افتكّ القيروان من ورفجومة سنة141ه/ 8758م (ينظر حسن، ت السّير، ج3،ص916 / الزركلي، الأعلام،ج3، ص279) وسقطت دولته عام 144هـ/761م (ينظرالشيباني. تاريخ أباضيّة تمازغا، صص225،220)

[3]- "ولم يبرح أبو الخطّاب رحمه الله بقلّة من معه من المسلمين حتّى استُشهد واستشهد معه أربعة آلاف" (الورجلاني، السيّر، ج1، ص74)

[4]- الهاشمي الحسين، الإباضيّة والمثاقفة. أطروحة دكتورا مرقونة، ص256

[5]- الورجلاني. كتاب السّير،ج1، ص87.

[6]- الشمّاخي، كتاب السّير، ج2، ص326

وكلّها علوم أصول ووسائل لإنشاء الدّولة وتشييد عاصمتها. ينضاف إليها ولع عبد الرّحمان منذ الصّغر بإنشاء دولة المذهب، منذ سمع بحُلُم سلمة بن سعد "وددت أن يظهر هذا الأمر يوما واحدا. فما أبالي أن تُضرب عنقي" فتعلّق بمسامع عبد الرّحمان ما قال. فاجتهد في طلب ذلك أتمّ الطّلب والاجتهاد. قال: ولا أدري كيف التّوصّل إليه. وكان بمدينة القيروان. فلمّا سمع ما سمع من سلَمة بن سعد تعلّق قوله بقلبه وطلب ذلك. قال له رجل من أهل الدّعوة: إن أردت هذا الأمر الذي كلّفت به فعليك بالبصرة برجل عالم فيها يقال له مسلم أبو عبيدة بن أبي كريمة التّميميّ. تجد عنده ما تطلب. وقيل: أمّه هي القائلة له ذلك[1]. يبدو جليّا تمييز السّرديّة الإباضيّة عبد الرّحمان بجملة معارف وفضائل تؤهّله لاختيار مكان غُفل لإنشاء عاصمة دولته. أطلق عليها إسم "تيهرت تاقدمت. وتفسيرها الدّفّ. بناها عبد الرّحمان في موضع مربّع"[2]. أمّا الطّريف في سرديّة التّشييد فما تعلّق بالأخبار من كرامات ومعجزات لحقت بالمكان أوّلا وبالبُناة ثانيا وبساكنته من الوحوش ثالثا.

لقد كانت "تيهرت غياطيل وأشجاراً ملتفّةً يسكنها أنواع السّباع والوحوش، أرضها لقوْم من البربر. فلمّا أذن الله بعمارتها بالنّاس، قال أبو زكريّا: إنّ المسلمين ورؤساء العابدين وكبار الزّاهدين وجماعة المؤمنين اتّفقوا أن يتخيّروا موضعًا يبنون فيه مدينة لتكون حرزًا وحصنًا للإسلام. فأرسلوا الروّاد. فطافوا أطراف تلك البلاد. فاستحسنوا موضع تيهرت. فاتّفق رأي المسلمين على بنائها. فجعلوا لأهلها عليه خرجًا معلومًا، يأخذونه من غلّتها. فأمر مناديًا، فنادى بأعلى صوته منْ بِها من الوحوش أنْ اخْرجوا وارتحلوا، فإنّا مريدون عمارتها، ونازلون بها. وأجلّوا لها ثلاثة أيام[3].

إنّ تيهرت المكان البكر لا يختلف في وضعه الأصليّ عمّا يسمّيه ميرسيا إلياد "المرحلة المنوكيّة"[4] "Ménok"، مرحلة العماء Cahos، وغياب الشّكل. وهي من وجهة نظر كوسموغونيّة[5] تسبق المرحلة الجيتيقيّة (جيتاه: الحياة). و"تُحوّلُ كلّ عمليّةِ خلق، إنقسامَ وحدة إلى شطرين". من هنا تصير عمليّة البناء انتزاعا لهذا الفضاء من اللّاشكل، ومنحه هيأة وضوابط. "فالأقاليم القاحلة التي تسكنها الهوْلات Monstres أو الغيلان، وكذا الأراضي البُور والبحار المجهولة التي لا يجسر ملّاح على الإبحار فيها...إنّما يتمثّلها العماء. وتنال نصيبها من الكيفيّة غير المتمايزة، وغير المتشكّلة. وهي حالة ما قبل الخلق. ولذلك عندما يمتلك أناس مثل هذه الأقاليم كانوا يعمدون إلى أداء الطّقوس التي تكرّر رمزيّا فعل

---

[1]- م. ن، ج2، ص246

[2]- م. ن، ج2، ص273

[3]- الشمّاخي، كتاب السّير، ج2، صص264-265

[4]- مرسيا إلياد، أسطورة العود الأبديّ، تعريب نهاد خيّاطة. دار طلاس للدّراسات والتّرجمة. ط1، 1987، ص23

[5]- وجهة النّظر الكوسموغنيّة تتعلّق بنظريّة ولادة الكون (cosmos: الولادة- الوجود / cahos: العدم)

الخلق"[1]، خلق الآلهة للعالم في لحظة البدء.

فهل كانت الغيلان والجنّ لتجد أماكن للسّكن أفضل من الغياطيل والأشجار الملتفّة قبل أن ينتزعها منها عبد الرّحمان فيكتسب فعلُه بطولةً مضاعفة؟

وهل كانت تيهرت لتكون بلدا حراما، لو لم يسبق في نيّة منشئها أن تُبنى لتكون "حرزًا وحصنًا للإسلام"؟ ولو لم تُغلّفها منذ إنشائها طقوس تشييد مغموسة بالقداسة؟ ألم يكن من وهبها البركة وأشرف على اختيارها فضاءً، وعلى تعميرها مكانًا هم "المسلمون، ورؤساءُ العابدين، وكبارُ الزّاهدين، وجماعةُ المؤمنين" كما ورد في خبر أبي زكرياء؟ حتما يصير إنشاءُ تيهرت فعلا تعبّديا يُبدأ بعقد النيّة ويمرّ إلى شعائر الإنجاز ليُختم بالقبول. ولأجل ذلك بناها عبد الرّحمان "في موضع مربّع"، لتكونَ نموذجا مصغّرا عن الكون الإلهيّ بأبعاده وجهاته. وفي ذلك وعي من المؤسّس بأنّ "عيش المرء وفق النّماذج البدئيّة، معناه أن يحترم الشّريعة، مادامت الشّريعة ليست غير تجلّ إلاهيّ أوّليّ، وكشف في الزّمن البدئيّ عن قواعد الوجود التي استنّتها الألوهة"[2]؟

إنّ بركة المكان تتجاوز المكان ذاته ومؤسّسه. لتنخرط في تحقيقها كائنات غير بشريّة، أو هي حيوانيّة بالأساس. إذ فصّل الشّمّاخي رواية الوارجلاني المتعلّقة بسلوك الوحش: "وبلغنا أنّهم رأوا وحوشها تحمل أولادها في أفواهها خارجة منها. فكان ذلك ممّا رغّبهم في عمارتها وقوّى إنشاءها. ثم إنّهم أطلقوا فيها النّيران فاحترقت ما عليها من الأشجار ودوحها. وعمدوا إلى حيْس[3] فلفّوه فصاروا يدفنونه تحت أصول تلك الأشجار فلمّا جنّهم اللّيل طرقت الخنازير تلك الأشجار فصارت تحفرها حتّى أتت على آخرها حين شمّت رائحة الحيْس. فلمّا أصبحوا وجدوها كلّها مقتلعة على وجه الأرض. ثمّ إنّهم عمدوا إلى مكان فأصلحوه لصلاتهم. فلمّا أرادوا أن يبنوها انتخبوا أربعة أمكنة واقرعوا عليها أيّها يجعلون المسجد الجامع. فوقعت قرعتهم على المكان الأوّل الذي أصلحوه للصّلاة. فبنوا المسجد الجامع به. فأخذوا في إنشائها وعمارتها فجعلوها ديارا وقُصورا"[4].

إنّ حرق الأشجار شكل من أشكال التّطهير، ينشدّ إلى موروث فارسيّ قديم يرى في النّار أحد العناصر الأربعة البانية للكون، ما لم تكن معبودا. غير أنّ حضورها لم يكن بنيّة العبادة بقدر ما هي ممارسة لفعل المحْو. محو ماضي المكان المدنّس وإعطائه وجودا جديدا يتوافق مع غاية إنشائه. ومع حضور الحيوان (الخنازير البرّية) تُقذف تيهرت في الزّمن الميطيقيّ فتتحوّل مدينة أسطوريّة أسهم الإنس والجنّ والحيوان في إنشائها. نموذجا يذكّر

---

[1]- مرسيا إلياد، أسطورة العود الأبديّ، ص27.

[2]- م. ن، ص168.

[3]- الحيس: أقِط مخلوط بتمر وسمن. (الشمّاخي، كتاب السّير، ج2، صص264-265)

[4]- الوارجلاني أبو يحي زكرياء، كتاب السّيرة وأخبار الأئمّة، تحقيق عبد الرّحمان أيّوب، ج1، ص86

بمدينة سليمان الحكيم تحملها الرّياح. غدوّها شهر ورواحها شهر[1]. وغير بعيد عن التّأثيرات الأسطوريّة لا تعدم ظروف إنشاء تيهرت محاكاة ما نقله الإخباريّون عن تأسيس القيروان قبلها. خاصّة ما رواه ابن عبد الحكم في "فتوح مصر والمغرب": ثمّ انصرف عقبة بن نافع إلى القيروان فلم يعجب بالقيروان الّذي كان معاوية بن حديج بناه قبله. فركب والنّاس معه حتّى أتى موضع القيروان اليوم. وكان واديا كثير الشّجر، كثير القطف تأوي إليه الوحوش والسّباع والهوام. ثمّ نادى بأعلى صوته: "يا أهل الوادي ارتحلوا-رحمكم اللّه- إنّا نازلون". نادى بذلك ثلاثة أيّام. فلم يبق من السّباع شيء ولا الوحوش والهوام إلاّ خرج...فجعلت الحيّات تنساب والعقارب وغيرها ممّا يعرف من الدّواب، تخرج ذاهبة"[2].

أفلا يكون بناء القيروان مصدر قياس في حكاية تأسيس تيهرت؟ خاصّة وأنّ أباضيّة القرن الخامس قد اطّلعوا على مختلف أخبار تأسيس مدينة القيروان. بل وزاروها مركزا تعليميّا فيه تعلّموا اللّغة العربيّة. كما فَعلَ مؤسّس نظام العزّابة[3]. ليتولّى تلاميذه حفظ قصّة ابن عبد الحكم (214هـ/830م)[4] حول نشأتها. وعليها قاسوا تدوينهم لخبر تأسيس أسلافهم لتيهرت عاصمة الدّولة الرّستميّة. وهم في جميع ذلك يتوسّلون بأخبار الكرامات وطقوس القداسة يضفونها على سرديّتهم المتعلّقة ببركة المكان، مفاوضة لموروثين تاريخيّين: تاريخ شعبيّ شفاهيّ ينشره الهلاليون تخليدا لملاحم أبطالهم، وتاريخ رسميّ مدوّن يقرّه المؤرّخون المشارقة ويرفعونه إلى مصافّ الحقائق تُجلي دور القيروان وتحجب إشعاع تيهرت. ولذلك انتصرت السّرديّة الإباضيّة اللّاحقة عبر مفاوضة مواطن النّقص التّاريخيّة في الرّواية المشرقيّة. وعوض الإفتراق الذي حكم اختيار عقبة لقيروان جديد غير قيروان معاوية بن حديج، ينبع قرار الإمام الرّستميّ من توافق بينه وبين جمهور "المسلمين ورؤساء العابدين وكبار الزّاهدين وجماعة المؤمنين" من ناحية، وبين هذين الطّرفين مجتمعين وملّاك المكان الذين رضوا بـ"خرج معلوم، يأخذونه من غلّتها".

لا غرو بعد كلّ ذلك أن تصير تيهرت "حرزا وحصنا للمسلمين سمّيت المعسكر المبارك"[5]. و"لمّا اشتهر عدل عبد الرّحمان انتقل إليها الأموال والتّجار من مصر وإفريقيّة

---

[1]- سورة سبأ، الآية (12): (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ)

[2]- ابن عبد الحكم. فتوح مصر والمغرب، (تحقيق عبد المنعم عامر)، ط1، القاهرة مصر، الهيأة العامّة لقصور الثّقافة، [دت] ،ج1، صص255،256. / مجهول. مفاخر البربر، (تحقيق عبد القادر بوباية) ط1، الرّباط المغرب، دار أبي قراق للنّشر، 2005، ص193.

[3]- الورجلاني. كتاب السّيرة، ج1، ص252: أورد الورجلاني حديث المعلّم أبي نوح سعيد بن زنغيل (ق4هـ/10م)، في مواهب تلميذه أبي عبد اللّه محمّد بن بكر الفرسطائي حين "نظر إليه ذات مرة فقال: "إن كنت أفهم شيئا فإنّ هذا الفتى هو الذي يحيى دين الله. فلما بلغ من العلم ما قدر الله له ومات الشّيخ أبو نوح رضي الله عنه. توجّه (أبو عبد اللّه محمّد بن بكر) نحو القيروان وتعلّم بها النحو والعربيّة. فلمّا حدر من القيروان عند ذلك قصد الحلقة".

[4]- عبد الرّحمان بن عبد الحكم ضالع في الحديث والفقه وقد ألّف الكتب الكثيرة (ينظر موجز دائرة المعارف الإسلاميّة، نشر مركز الشّارقة 1998، ط1، ج1، ص245)

[5]- الوارجلاني، كتاب السّيرة وأخبار الأئمّة، ج1، صص88-89

والمغرب لخوفهم على أموالهم من أئمّة الجور. فنفقت فيها السّلع مع كونها كثيرة الخصب[1]. وبإنشاء تيهرت وتطوّر رحلات العلم والحجّ والتّجارة نشطت حواضر أخرى على أطرافها مثل أريغ (ريغ) نسبة إلى بني ريغة الذين حلّ فيهم العالم محمّد بن بكر الفرسطائي (ت440هـ/1048م). حين تحوّل عن الجبل في القرن الخامس لينشئ نظام العزّابة بآجلو 409هـ/1018م، أو بلدة أعْمُر وتُسمّى تين باماطوس، وآجلو الغربيّ، آجلو الشّرقي. وهي أسماء تكاد تشكّل مدينة واحدة. وقد اهتمّت بها المصادر التّاريخيّة باعتبارها عاصمة ثقافيّة لها فضل على المناطق المجاورة مثل وارجلان وبادية بني مصعب. كما نشطت تاجديت، أو تاجديدين، وتعني بالبربريّة الجديدة. ومن مشائخها محمّد بن عيسى بن إبراهيم الهوّاري (ق5هـ) والعالمة مغريت بنت يعلو اللّواتيّة. ووغلانة غير البعيدة عن تاجديت. وأشهر علمائها يعقوب بن هارون الوغلانيّ (ق6هـ).

## 2. الأماكن المطوّرة والمحوّرة: (المساجد والمحاريب والكنائس)

لقد احتاجت مرحلة إنشاء الدّولة كما مرحلة ما بعد انتهائها، جملة تشريعات للحفاظ على وحدة المذهب، ودعم تماسك مكوّنات المجتمع الأباضيّ. وهي كلّها عمليات استدعت تنظيمات جديدة في نشر الثّقافة وحفظ التّراث المشترك. فكان الانتقال من السّاحات ومن المصلّيات وعرائش النّخل إلى المساجد. لقد ارتبط التعبّد والتّعلّم في نشأته بالبلاد الجبليّة من نفوسة ودمّر بظلال شجر التّين والزّيتون والنّخيل والخرّوب. فشيوخ بني يراسن (جربة) لم يعدموا "معونة على نشر العلم بالإفادة ورفع الكلفة والمؤونة". و"كان جلوس الحلقتين بالموضع المعروف "يأتيجان" من الجزيرة. وهناك شجرتان من الخرّوب عظيمتان فكان جلوس طلبة الفقه عند الشّجرة القبليّة منهما. وطلبة الأصول عند الجوفيّة. فأقاموا على هذا مدّة. ثمّ انتقلوا بجملتهم إلى المسجد الكبير لمّا كثر طلبة علم الكلام[2]"

كسا الشّجر بظلاله حلقات المعرفة الموجّهة إلى تلامذة العزّابة، والمنتظمة حول جملة من الشّيوخ أشاعوا نهج الحلقة في التّدريس. وأقرّوا بين المتعلّمين ما سمّوه "العزم"، ذاك الانقطاع الكلّيّ لطلب العلم وعنه ستنشأ ظاهرة "العزّابيّة" شكلا من أشكال الانضباط كما عرّفها الدّرجيني. حتّى إنّ الأخبار المتعلّقة بالإمام عبد الوهّاب نفسه في رحلة حجّه من تيهرت مرورا بجبل دمّر لم يأمر ببناء مسجد، ولا هو غيّر للجماعة الدمّريّة فضاء عبادتها، المتحوّل عمرانيّا عن مرقب رومانيّ مسطّح إلى مصلّى جماعيّ مفتوح. لأنّ المرحلة التّاريخيّة وقتها لم تدرك بعدُ عكوف العبّاد، ولا انشغال الشّيوخ بتدريس التلاميذ، داخل هذه الفضاءات. وحتّى عندما أُحتيج إلى هذه الفضاءات في بدايات حركة نشر العلم، وانتشار التّعليم، كانت المواطن بسيطة. عريشا تحت شجرة، أو مصلّى، أو محرابا مرتفعا

---

[1]- الشمّاخي، كتاب السّير، ج2، ص286

[2]- الدّرجيني، طبقات المشائخ بالمغرب، ص193

في مكان منفتح، بل إنّ بعض هذه المساجد كانت في الأصل كنائس وقد ذكرها الشّماخي في كتاب السّير وعلّق عليها روني باصّي في تسمية مشاهد جبل نفوسة مثل كنيسة الجزيرة الواقعة بوادي شروس، وكنيسة فرسطا بلالوت، وكنيسة أغرمينان قدّام أبدلان، وكنيسة بغطورة، وكنيسة تنبطين، وكنيسة نسيم بمديريّة فساطو، وكنيسة تمزدا الواقعة بحافة الجبل الغربيّ بفساطو ،وكنيسة توكيت بلد أبي زكرياء يصليتن التّوكيتي[1].

إنّ جامع أهل وارجلان هو في الأصل محراب في مقبرة. اختاروه للاجتماع فيه كمصلّى منفتح به منبر، واقع ظاهر المدينة. إذ: "بعد إصابة أبي يعقوب[2] في جارحة لسانه: وكان سبب ذلك مسألة نزلت في وارجلان فاجتمع عليها من يُنظر إليه من أهل وارجلان –وكان كذلك يفعلون في ذلك الزّمان في ما ينزل عليهم من النّوازل- فاجتمعوا في المنبر الذي قدّام وارجلان، فجرَت عليهم المسألة. وهي: امرأة ادّعى تزوُّجَها رجلان، فأتى كلّ واحد منهما ببيّنة على أنّها تزوّجته. فتردد المشايخ المسألة، حتّى انتهت إلى أبي يعقوب. فأفتى فيها أنّها حرُمت على الأوّل والآخر، وعلى رجال الدّنيا كلّهم ورجال الآخرة. إلاّ أن تتوب فتحلّ لأهل الآخرة. فقال رجل من بني ياجرين: هاج الفحل فتفرّق القعدان. فأُصيب في لسانه حتّى لا يقدر على الكلام من غير الشّفتين[3]. لذلك يمكن القول أنّ التّعمير الثّقافيّ للمساجد- المدارس اقتصر في البداية على المصلّيات المفتوحة لكلّ حوار وجوار ممكنين، ضمن حراك الرّحيل الاجتماعيّ أو الزّيارات السّياسيّة لأجزاء الإقليم. فهذا الإمام الثّاني للدّولة الرّستميّة "عبد الوهّاب رضي اللّه عنه (حين) أراد المسير إلى الحجّ فأخذ في هيأة السفر. فمضى حتّى وصل إلى جبل دمّر مع زوجته. فجاز بها واستعمل عليهم (أهل دمّر) رجلا يقال له "مدرار". وللإمام بها مصلّى بموضع يقال له تلالت. وفي موضع المصلّى بلاطة يتّكئ عليها الإمام رضي اللّه عنه، كقعدة فيستوي رأسه مع رأس البلاطة، وهي اليوم تبلغ للواقف إلى الصّدر. ثم توجّه إلى جبل نفوسة، وقد عزم على المسير للحجّ".[4]

أمّا محاريب المقابر، وهي الأشكال الأساسيّة للمساجد قبل بنائها[5]، فلم تكن فضاءات اتّعاظ واعتبار فحسب بل وُظّفت بدورها لما يشغل الجماعة من هموم واقعها الدّنيويّ. وإضافة إلى اقتران تسمياتها بشخصيّات زاهدة عابدة فقد مثّلت أماكن يُلتجأ إليها لاستجابة الدّعاء خاصّة في دفع الملمّات. فقد "ذكر أبو سهل وأبو عمرو وأبو نوح عن أبي سليمان أنّ الدُّبا (صغير الجراد) وقع في آجلو سنة من السّنين، فأذاهم وضرّهم ضررا عظيما. فاجتمعوا وصاموا يوم الأربعاء والخميس والجمعة، فلمّا وصل العصر خرجوا

---

[1]- روني باصّي، تسمية مشاهد جبل نفوسة: ص40/ ص29/ ص54/ ص50 /ص75 /ص69

[2]- أبو يعقوب يوسف الورجلاني (6هـ/12م).

[3]- الوسياني، سير الوسياني، ج3، ص883-884.

[4]- الوارجلاني، كتاب السّيرة وأخبار الأئمّة، ط1، ج1، ص115

[5]- المحاريب في نصوص السّير أو من خلال زياراتنا الميدانيّة لبعض شواهد جبل دمّر هي أماكن مسطّحة تحاط بحجارة على هيئة محراب. فتتحوّل مواضع سجود ومرابطة وقعود.

إلى محراب المقبرة وهو مستجاب الدّعاء. فختموا ودعوْا عليه...فصلّى بهم يونس بن أبي الحسن –وكان إمامهم يومئذ، وكان مستجاب الدّعاء، ورأس لسانه أسود- صلاة المغرب، ودعوا عليه اللّه أن يرفعه عنهم فلمّا أصبحوا لم يوجد له أثر ولا رجل ولا شعر"[1].

أمّا مسجد أبي الرّبيع سليمان بن يخلف المزّاتي، المنتقل من جزيرة جربة فلم يكن في الأصل محرابا حجريّا، وإنّما حين قصد "إلى تمولست ومعه ذلك الرّهط من المتعلمين للأصول ووضعوا عريشا عند عيون تمولست"[2]. هذا العريش ذاته هو مكان العبادة والتّعليم ثمّ يُبنى المسجد لاحقا. فـ"أبو حبيب له عريش يتعبّد عليه ما يسع صحنُه غيرَه. فإذا زاره العزّاب وسِعهم بإذن اللّه، قلّوا أو كثروا. فبنوا عليه مسجدا. ومكان العريش المحراب، معروفا يُزارُ[3].

إنّ المساجد المشيّدة أو المطوّرة عن محاريب وعرائش مثّلت أماكن مباركة تخصّصها ميزات أربع. أوّلها وظيفة التعبّد والتّعليم. وإذ تتقدّم الصّلاة عند الإباضيّة على كلّ الفرائض قيمة وأهميّة، فإنّ زيارة المساجد تفرض احتفالا جسديّا مخصوصا من خلال جملة مظاهر تعبّد تتأصّل في الطّهارة وتنفتح على الجماليّة والتّأنّق، فـ"أبو يعقوب البدني[4] (4هـ/10م)، وهو الّذي كان الشيوخ يقدمونه في صلاتهم إذا اجتمعوا في جادو، كان يلبس ثيابا حسنة فأشير له في ذلك فأشار لهم في صدره وضميره"[5]، وأبو سهل البستوتي[6] (4هـ/10)، العالم التّاجر، كان "إذا قرب وقت الظهر قام واغتسل للصلاة، يلبس قميصين معقودين بطوق واحد، وعمامة حسن[ة ] وكساة سجلماسية. ثم يمضي إلى مسجد مصراتن فيؤذن ويصلي ويشتغل في العبادة والصّلاة حتّى يصلّي العصر[7]. أمّا ثانيا فقد مثّلت المساجد أيضا أماكن حدوث الكرامات وإعلاء مكانة الشّيوخ المرابطين بها. فقد"ذكروا أنّ ماطوس ابن ماطوس[8] كان إذا خرج من المسجد

---

[1]- الوسياني، السّير، ص602

[2]- الوارجلاني. كتاب السّيرة وأخبار الأئمّة، ط1، ج1، ص271

[3]- الوسياني، سير الوسياني، ج2، ص611

[4]- أبو يعقوب البدني التّملوشاتي شيخ أباضي من تملوشايت جبل نفوسة. معاصر لأبي الرّبيع التملوشاتي (ينظر حسن، ت السّير، ج3، ص1052)

[5]- البغطوري. سيرة المشايخ، ص47

[6]- أبو سهل البشر بن محمّد البستوتي التندميرتي. كان تاجرا وأخذ العلم عن أبي يحيى يوسف بن زيد الدّرفي. زار بن يوسف النّفستي (ينظر حسن، ت السّير، ج3، ص947 / الشقروني، تحقيق سير المشايخ، ص133، هامش501)

[7]- البغطوري. سيرة المشايخ، ص133

[8]- سليمان بن ماطوس الشروسي (حي بعد 283ه / 896م) أنعش المذهب الإباضيّ بعد أن أشرفت أشرفت شمسه على الأفول، وهو من العلماء القلائل الذين نجوا من مذبحة مانو. وثق به المشايخ فأسندوا إليه حكم جبل نفوسة. لم تذكر كتب السّير مشايخه ولكن أطنبت في ذكر تلامذته. إذ أخذ عنه العلم أبو صالح بكر بن قاسم، وأبو موسى اليراسني، وغيرهما. لم يبق بلد من بلدان الإباضية لم تدخله فتوى ابن ماطوس، ولم يبق كتاب من أمَّهات كتبهم خاليًا من أقواله. له تآليف في أصول الدّين، وفتاوى متناثرة في المصادر والمراجع. (الشمّاخي :السّير،1 / 235 / معجم أعلام الإباضية رقم462).

يريد أن يذهب إلى بيته بليل سبقه عمود من نور...ومدحه رجل بذلك الضوء فقال ابن ماطوس: يافلان الشيطان إن لم يدفع إلى قدّام، يدفع إلى خلف فنسأل الله العصمة منه"[1]. وإذا ما ميّزت ملازمة المسجد الشّيخ ماطوسا، بعمود من نور فإنّ أبا العبّاس الفرسطائي قد وجّهته رؤياه بالمسجد نحو طلب العلم. ليُنعت بعد موته بالشّيخ المكتبة. يقول: "أتاني آت في منامي، رجل أبيض فسبقني وتبعته حتّى دخل في قرية تين زاج، وهي في نفزاوة. ثمّ سار بي إلى المسجد وقصد بي المحراب فقال لي: احفر. فحفرت. فأخرجت قصعة كبيرة. فوجدت فيها دينارا. فقال لي: خذ إرث والدك. فسألت المعبّر في قابس فقال لي: القصعة، العلم والخير. والدّينار الدّين الصّافي، دين والدك. فرجعت إلى تمولست. وبلغ مبلغا عظيما في العلم. ووضع عشرين كتابا. وكتابين معروضين عليه. وعُرضت كلّها عليه غير كتاب تركه في الألواح في آجلو"[2]. ونختم بخبر الشّيخ عبد اللّه بن توتسيت الذي طالته بركة الرّزق في المسجد حتى اكتفى وهو القائل: أزفنا رجب وليس عندي ما أشرب من الإقطِ. فقمت إلى مسجد تناوتة. فصلّيت فإذا دينار أمامي. فرفعته ومضيت إلى داري. وقعدت في مصلاّي فإذا دينار يطير حتّى وقع في ثوبي. فقلت: كفاني يا ربِّ، كفاني ربّي"[3].

وإضافة إلى تينك الخصيصتين يمكن إضافة ثالثة تحوّل المسجد مكانا للإشراف وتسريب مظاهر الانضباط والحفاظ على هيأة المنتسبين إلى المذهب. مثل كُره الشّيوخ للإقتعاط[4] (لبس العمامة وترك الوجه واللّحية مكشوفة) ومدح التلحّي. وذاك ما دفع الوسياني إلى أن يُفرد له فصلا أسماه: "ذكر التّلحّي وما جاء فيه عن أشياخ المسلمين" يقدّم فيه حديث "أبي العبّاس بالذي جرى عليه في مسجد تماواط، إذ نظر حوله، فإذا جابر بن حمّو لم يتلحّ، فأشار إليه بإصبعه الوسطى والمسبّحة، فقال: ما يستأهل إلّا ضرب الرّقبة"[5]. أمّا رابعا وأخيرا فنشير إلى أنّ قداسة فضاء العبادة وبركة المساجد على وجه الخصوص قد تسرّبت إلى أدقّ تفاصيل المعاملات حتى بين الإباضيّة وأجوارهم أو بينهم وبين المخالفين نكّارا كانوا من داخل المذهب أو عربا من أولئك "الغصبة الغوّارة" على حدّ عبارة الشّيخ أبي عمّار عبد الكافي حين قال واصفا العرب وهو بمكّة: "هذه جزيرتهم، القاعد في أيديهم الحلال، وتلك الجزيرة جزيرة البربر، إنّما هم فيها غارة، وكلّ ما كان في أيدي الغارة فَرِيبةٌ. إلاّ من أبصر شيئا، وعاينه، فلا يحلّ له أكله، ولا شراؤه والاستنفاع به، أينما كان في بدو أو في حضر... ونحن في جزيرتنا كالعرب في جزيرتهم، والحمد للّه

---

[1]- البغطوري، سيرة المشايخ، ص79.

[2]- أبو العبّاس أحمد الدّرجيني. طبقات المشايخ بالمغرب، ص267

[3]- م. ن، ج2، ص612-613

[4]- التلحّي: جاء في لسان العرب "تلحّى الرّجل تعمّم تحت حلقه هذا تعبير ثعلب. والصّواب تعمّم تحت لحييه ليصحّ الاشتقاق /"الاقتعاط: "والاقتعاط أن لايجعل تحت حنكه منها (العمامة) شيء" (ابن منظور، اللسان، مجلد15، ص243).

[5] الوسياني، سير الوسياني، ج2، ص525

ربّ العالمين"[1]. ليتحوّل هذا الوعي بالتّمايز الجغرافي-الثّقافي، ونتيجة لجدل الدّين والعمران، إلى الجانب التّشريعيّ فيتجلّى في شكل أحكام فقهيّة، تُلزم أتباع المذهب والعِرق، وتبلغ حدّ تجريم التّعامل، وتحريم التّبادل. كالشّيخ يكنول الذي وُوجه اقتراحه بكراء جمال العرب، شتاء، تحمل الحطب إلى المسجد، بالرّفض والتّشنيع من قَبلِ الشّيخ إسحاق حين ردّ عليه: "معاذ اللّه من ذلك. ما نفعله إن شاء اللّه. ونحمل الحطب على الجمال التي في أيدي العرب، ونوقده في المسجد، ونسخّن إليه، ويطلع معنا دخانه، ونذكي منه المصابيح، ونقرأ القرآن والكتاب؟ لا نفعل ولا نجتمع عليه... ونهره الشّيخ أبو صالح يعلو حين بلغه ذلك وقال: إنّما الأموال التي بأيدي العرب، الرّيبة عند جميع أهل الدّعوة"[2]. تماما كرأي زوجة الشّيخ إسماعيل بن عليّ النّفزاويّ، حين امتنع زوجها عن أكل لحم الجمل، وهم في ضيافة أبي العبّاس أحمد بن محمّد بن عليّ في تماواط، فقالت مبرّرة: "كلّ الذي في أيدي العرب من الجمال، هي لنا. قد أخذوها منّا غصبا"[3].

ولأنّ المسجدَ يستبطن أرقى مظاهر القداسة ويُتبرّك بزيارته والحلول فيه، فهو آخر ما يسقط من الأماكن عند الثّورات، وآخر الحصون التي يطالها الخراب. وذاك ما لحق وارجلان الواقعة في عمق الصّحراء، والتي لم تكن بمنأى عن غزوات أهل الخلاف وعساكر دول الفضاء البحريّ. فقد نظر إليها الشّيوخ بعد انهيار الدّولة الرّستميّة بلادا غير حصينة. فبمجرّد وصول خيل الدّعوة الموحّدية إليهم حتّى استشاروا أبا يوسف يعقوب الورجلاني فنبّههم إلى أنّ الخطر القادم هو على عكس المعهود في تخريب بلاد الإباضيّة. ممّا قلب تصوّر بلاد الصّحراء الملاذ. فخاطب أتباعه قائلا: "هؤلاء لا يخرّبون بلدكم بل تنالون في أيامهم عزّا وإقبالا، وتلقون منهم في بلادهم خير لقاء وإكراما وإحسانا، أكثر مما تلقونه في بلادكم. فأجيبوا دعوتهم تفلحوا. فليسوا بالذين يخرّبون بلدكم. وأمّا الذي يخرّب بلدكم فيخرج من سلجماسة ويموت في البحر. وإن خرج من البحر فإنّه يموت في سلجماسة. وهو المتلثّم، فإذا ظهر فلا بد أن يردّ بلادكم قاعا صفصفا، وسمعت هذا الخبر سنة عشرين وستمائة فلما كانت سنة ست وعشرين أوسبع وعشرين دخلها يحيى بن إسحاق المَيُروقي المتلثّم. فهدم كل ما دار عليه سورها إلى المسجد. وعاد وارجلان كأن لم تغن بالأمس"[4].

---

[1]- م. ن، ج2، ص683

[2]- م. ن، ص683

[3]- الوسياني، سير الوسياني، ج2، ص 683

[4]- الدّرجيني. طبقات المشائخ، ج2، صص315،316 / الشمّاخي، كتاب السّير، ج2، ص643.